الكامل الأيوبي وبيت المقدس:
قراءة جديدة

أ.د. عمار محمد النهار

الكامل الأيوبي وبيت المقدس:
قراءة جديدة

أ. د. عمار محمد النهار

المقدمة:

كان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ – ٥٨٩هـ / ١١٧١ – ١١٩٢م)_ فيما يرى كثيرون _ رجل علم وإصلاح وجهاد، إذ بدأ حكمه ببناء المدارس، وأحب مجالس العلماء، وأوقف على أعمال البر أوقافاً كثيرة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وهو صاحب الإنجازات التاريخية العسكرية، وصاحب الانتصارات الكبرى على الفرنج، لكن هناك من ضيّع هذه الإنجازات من البيت الأيوبي، فالحقيقة المرة أنه–ومنذ وفاة صلاح الدين– لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بالمؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية[١].

إذ لما توفي صلاح الدين كان بدمشق ابنه الأفضل نور الدين، فملكها مع الساحل وبعلبك وغيرهما، وكان بحلب ابنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلى أعمالها، وكان بمصر ابنه العزيز عثمان فاستولى عليها، وكان بالكرك عمهم الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، وبهذه الكيفية انقسمت الدولة الأيوبية إلى ثلاث دول في مصر ودمشق وحلب.

[١]– انظر المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج٥، ص: ١١٤ وما بعد، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة: طقوش، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩م، ص: ٢٢٩.

ثم استطاع العادل (٥٩٦–٦١٥هـ /١٢٠٠–١٢١٨م) أن يوحد الدولة الأيوبية مرة أخرى تحت حكمه لما قضى على محاولة أولاد أخيه الأفضل والظاهر في السيطرة على دمشق ومصر، وبدأ بجهاد الصليبيين[٢] من جديد[٣]. وبعد موت العادل عادت النزاعات بين الأيوبيين، ولكنها أخذت هذه المرة منعرجاً خطيراً، إذ جعل هؤلاء–في هذه المرحلة التاريخية– من بيت المقدس عرضة للمساومات، وهذا ما ناقشه هذا البحث.

فإن كانت أصابع الاتهام– في الرؤية السائدة والشائعة – موجهة باتجاه الملك الكامل محمد بن العادل (٦١٥–٦٣٥هـ/ ١٢١٨–١٢٣٨م) فقط، فإن البحث يُظهر غير ذلك، كما يُظهر حقيقة هدنة ٦١٨هـ/١٢٢١م. وإن أورد المؤرخون العرب بنود اتفاقية يافا (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) بشكلها المعروف، فإن مؤرخاً غربياً معاصراً للأحداث ذكر غير ذلك.

إلى غير ذلك من التحليلات التي ستوضح حقيقة ما حدث، ولن يقلل هذا البحث من شناعة فعلة التنازل عن بيت المقدس، لأن في ذلك استهانة بالمقدسات الدينية، بل مجاملة للحكام. وحاول البحث أن يركز على المصادر التاريخية فقط، لإضفاء نوع من الواقعية على هذا الحدث، في محاولة لاسترداد تلك الأحداث كما حدثت. والله ولي التوفيق.

---

٢)- نحن نتحفظ على هذه التسمية، فمن المعروف أنّ الفرنج ومن معهم قد دعوا أنفسهم بـ"الصليبيين" لأنهم تقنعوا بالصليب وهو براء منهم، ولكننا مضطرون إلى استخدامها لضرورة التوثيق والبيان، وبهذا المعنى الذي أكدته ممارساتهم الوحشية، وهو أنّ الصليب لم يكن سوى قناع وادعاء.

٣)- انظر الكامل في التاريخ: ابن الأثير، تحقيق عمر تدمري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م، ج١٠، ص: ٣٩٠ وما بعد. مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، شيكاغو، ١٩٠٧م، ٢٧٧/٢ وما بعد. تاريخ الأيوبيين: طقوش، ص: ٢٤٢، ٣٢٣.

أولاً – تصرفات الكامل ما قبل تسليم بيت المقدس، وهدنة عام ٦١٨ هـ/١٢٢١م:

لو سُمح للبحث بأن يحلل شخصية الكامل الأيوبي؛ لوجد أنه كان يتصف بالخوف والفزع وعدم الثبات، فضلاً عن عدم ثقة بالنفس، والاستسلام لواقع الأمور، والتخلي عمن هو مسؤول عنهم؛ أي انعدام تحمل المسؤولية.

والخطير أن هذه الصفات كان لها آثار خطيرة ليس على شخص الكامل أو أسرته أو على من حوله أو من يعول، وليس على الدولة العربية الإسلامية فقط أيضاً، بل على الأمة العربية والإسلامية والتاريخ العربي الإسلامي؛ وتجلى ذلك بقضية لا تزال تحيّر الباحثين إلى اليوم، وهي قضية تسليم بيت المقدس.

والخطير أيضاً أن هذه الصفات أو التصرفات أوصلت الكامل إلى ما يرقى إلى الخيانة العظمى بحق دينه وأمته وتاريخه– حسبما يرى كثيرون– بل وأدت إلى تضييع منجزات من قبله والتفريط بها، ولاسيما انتصارات صلاح الدين، والتي أوصلت الكامل وغيره من الأيوبيين إلى وضع التيجان على رؤوسهم.

وكي لا يكون الكلام تنظيرياً بحق الكامل الأيوبي، فإن البحث سيسوق أدلة واقعية تثبت (التحليل النفسي) أعلاه إن صح هذا التوصيف، وتثبت تلك الصفات التي ستؤدي إلى قضية هي من أخطر القضايا في التاريخ العربي الإسلامي.

فمن يقرأ بشمولية سيرة الملك الكامل، فسيجد تلك الصفات واضحة، وبداية هذه أمثلة متسلسلة استخلصها البحث من المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) تبيّن هذه الإشكالية لدى الكامل:

– ففي أحداث سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م يذكر المقريزي ما يأتي: «وفيها تخوّف الكامل من أمرائه».

– ويذكر في أحداث سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م: «وفيها كثر وهم الملك الكامل من عسكره... فوقع في نفسه الخوف ممن معه».

– ويذكر في أحداث سنة ٦٢٤هـ–/١٢٢٧م: «وفيها مات الملك المعظم... وكان قد خافه الملك الكامل، فسُرّ بموته»[٤].

وأراد البحث من خلال هذه الأمثلة المتسلسلة أن يدخل إلى مثال أو دليل كبير وواضح يؤيد ما ذهب إليه، فخلال أحداث الحملة الصليبية الخامسة التي بدأت سنة ٦١٥هـ–/١٢١٨م؛ ظهر تآمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب[٥]–أكبر أمراء مصر– ومن معه من الجند والأكراد على الكامل، وحاولوا إقامة أخيه الملك الفائز إبراهيم مكانه ليحكموا من خلاله الديار المصرية[٦].

فما كان من الكامل–ودون مقدمات كما يقال–إلا أن فارق موقعه في المعركة ليلاً وغادر تاركاً الجنود وحدهم في أرض المعركة، ووصف المؤرخ الغربي أنتوني بردج هذا التصرف

---

[٤]–انظر السلوك: المقريزي، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨م، ١/ ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٦.

[٥]– انظر عن ابن المشطوب ومؤامراته ومحاولته خلع الكامل: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية: منذر الحايك، دمشق، دار الأوائل، ط١، ٢٠٠٦م، ١/ ١٠٦ – ١١٩، والبحث فيه وافٍ عن هذا الرجل.

[٦]– مفرج الكروب: ابن واصل، تح جمال الدين الشيّال، مصر، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م، ١٦/٤، ١٧. والسلوك: المقريزي، ٣١٤/١ . والكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣٠٦/١٠، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي أحمد، تح ناظم رشيد، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٩م، ص٣٠١، ٣٠٢.

من الكامل بالاستسلام، لما قال: «فاستسلم–أي الكامل–للفزع، وانطلق بعيداً بحثاً عن الأمان» [٧].

وهنا يصور المؤرخ ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨م) الآثار المدمرة لهذا التصرف الغريب من الكامل، فيقول: «وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم، فركب كل سلطان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، وتركوا أثقالهم وخيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا ما خفّ عليهم حمله»، وأصبح الحال: «شيئاً لا يحد ولا يوصف»[٨].

بل إن المقريزي عدّ ذلك فتح طريق للصليبيين بالمجان للسيطرة على مصر، يقول: «فبادر الفرنج عند ذلك وعبروا بر دمياط وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما في معسكر المسلمين»[٩].

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، لأن الكامل عزم أيضاً «على مفارقة البلاد، وتركها بيد الفرنج، والتوجه إلى بلاد اليمن» التي كانت بيد ولده الملك المسعود[١٠]. وقد تدارك الملك المعظم (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) هذه التصرفات كلها من أخيه الكامل، وطالب الأيوبيين بتوحيد صفوفهم

٧- تاريخ الحروب الصليبية: أنتوني بردج، تر أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥م، ص٢٤٨.

٨- مفرج الكروب: ابن واصل، ١٧/٤، وانظر السلوك: المقريزي، ٣١٤/١، الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣٠٦/١٠.

٩- السلوك: المقريزي، ٣١٤/١.

١٠- مفرج الكروب: ابن واصل، ١٧/٤، ١٨.

لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج الصليبيين، ولولا موقف المعظم الثابت هذا « لتم لهم – أي للفرنج – ما أرادوا » كما عبّر أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٦م) [١١].

وظلت دمياط محاصرة من الفرنج الصليبيين، وصبر أهلها صبراً أسطورياً بشهادة المؤرخ ابن واصل حين قال: «ظلوا–أي أهل دمياط–يقاتلونهم–أي للفرنج–أشد قتال ويمانعونهم، وصبروا صبراً لم يُرَ مثله»[١٢]. ثم سقطت المدينة بأيدي الفرنج الصليبيين سنة ٦١٦هـ–/١٢١٩م بعد حصار مرير دام تسعة أشهر[١٣].

وكان سقوط دمياط مؤلماً جداً بشهادة المؤرخ سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، إذ يروي أن المعظم خاطبه حينها بقوله: «لو كان الدعاء الآن يُسمع لسمع دعاء أهل دمياط»[١٤].

وخلال تلك الأحداث وخلال سقوط دمياط وصلت تعزيزات جديدة إلى الصليبيين، وفي الوقت نفسه وصلت أنباء إلى الكامل عن تهديدات المغول، عندها ارتأى الكامل نهاية سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م أن يعرض الصلح على الصليبيين، ولكن الخطير هنا أن صلح الكامل هذا كان مقابل تنازلات عن مقدسات إسلامية؛ إذ تضمن عرض الكامل التنازلي ما يأتي:

– جلاء الصليبيين عن مصر.

---

[١١]- انظر المذيّل على الروضتين: أبو شامة، تح إبراهيم الزيبق، دمشق، دار الرسالة، بيروت، دار البشائر، ط١، ٢٠١٠م، ١/ ٣٣٠. السلوك: المقريزي، ٣١٥/١، ومفرج الكروب: ابن واصل، ١٨/٤.

[١٢]- مفرج الكروب: ابن واصل، ١٩/٤، وانظر الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣٠٧/١٠. أخبار الأيوبيين: ابن العميد جرجس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ص٣١١.

[١٣]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣٠٧/١٠، مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ٣٩٦/٨.

[١٤]- مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ٣٩٧/٨.

– ومقابل ذلك يعيد إليهم صليب الصلبوت[١٥].

– ويعطيهم بيت المقدس الشريف.

– ويعطيهم قلب فلسطين والجليل.

– لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء نهر الأردن.

– ويؤدون (أي المسلمون) عن هذه القلاع إتاوة!.

ويعلق رنسيمان على هذا العرض من الكامل: «كان ذلك عرضاً مثيراً للدهشة والقلق، إذا سوف يعود للعالم المسيحي دون قتال: المدينة المقدسة وبيت لحم والناصرة وصليب الصلبوت»[١٦].

ويظهر أن كثيرين عارضوا الكامل، إذ يقول المؤرخ الصليبي المعاصر لذلك الحدث روجر ويندوفر (ت ٦٣٥هـ/١٢٣٧م): «ومع أن هذا الرأي كان غير مقبول من قبل الكثيرين، أرسل رسلاً–أي الكامل–إلى الصليبيين»[١٧].

إذاً؛ عرض الكامل على الفرنج استعداده لتسليمهم بيت المقدس وغيره مقابل الجلاء عن مصر.

---

[١٥]- هو الصليب الأعظم عند المسيحيين؛ لأن فيه– كما يزعمون – قطعة من الخشب التي صُلب عليها المسيح – بزعمهم أيضاً، انظر معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٠٢.

[١٦]- تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان، تر السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٠م، ٢٨٦/٣.

[١٧]- ورود التاريخ: روجر ويندوفر، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية: تح و تر سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠م، ص٧٧٢.

اطلع الصليبيون على هذا العرض من الكامل، و«بحسب الظاهر كان عرضاً مدهشاً»[١٨] كما عبّر بردج، حتى أن العديد من الفرنج قد مالوا إلى قبوله، ولكن غلب رأي المعارضين الذين اقترحوا رفض هذا العرض، وبعد أيام من ذلك سقطت دمياط بيد الصليبيين[١٩].

عندها استصرخ الكامل الآفاق لاستنقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج، وتحركت روح الجهاد في نفوس المسلمين، واجتمع أهل مصر والقاهرة، ووصلت النجدات، و«نودي بالنفير العام»[٢٠].

وصمد المسلمون في وجه الصليبيين، وانقلبت الأحوال لصالحهم لمّا ظهر ما يدل على تضعضع الجبهة الصليبية، وهذا ما اضطرهم إلى أن يبعثوا «يسألون في الصلح»[٢١].

وهنا– وحسب منطق الأحداث–كان يجب أن تكون بنود الصلح في صالح الأيوبيين لأن المهزوم هم الصليبيون، وفي ذلك فرصة لتقييض تعدياتهم، ولكن الكامل خالف الواقع وقلب المنطق لما عرض– هو ومن معه– عليهم ما يأتي:

– أن يعطيهم بيت المقدس، وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة.

---

[١٨]- تاريخ الحروب الصليبية: أنتوني بردج، ص٢٤٩ .

[١٩]- تاريخ الحروب الصليبية: رنسيمان، ٢٨٧/٣، ٢٨٨.

[٢٠]- السلوك: المقريزي، ٣٢٠/١، ٣٢١، الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣٠٨/١٠، ٣٠٩، ومفرج الكروب: ابن واصل، ٩٣/٤. أخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص١٢.

[٢١]– السلوك: المقريزي، ٣٢١/١، وانظر الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٣١٠/١٠، ٣١١.

– أن يأخذوا من المسلمين جميع ما فتح صلاح الدين الأيوبي من الساحل عدا الكرك والشوبك.

– مقابل ذلك يسلم الصليبيون دمياط للمسلمين ويرحلون عن الديار المصرية[٢٢].

وهنا يقف البحث على عرض الكامل من خلال المؤرخ الغربي ويندوفر المعاصر لهذه الأحداث – الذي يختلف مع ما أورده المؤرخون المسلمون – إذ يقول: «وعرض عليهم – أي الكامل للصليبيين–:

– إعادة الصليب الحقيقي الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه قبل بعض الوقت الذي مضى.

– وأن يطلق سراح الأسرى جميعهم.

– وأن يدفع النفقات اللازمة من أجل ترميم أسوار بيت المقدس.

– وأن يعيد المدينة إلى حالتها السالفة.

– كما أنه عرض التخلي عن مملكة بيت المقدس جميعها باستثناء الكرك والشوبك.

– ومن أجل الاحتفاظ بهذين المكانين عرض أن يدفع سنوياً جزية مقدارها اثني عشر ألف دينار ما دام محتفظاً بهما...» (٢٣).

---

[٢٢]– السلوك: المقريزي، ٣٢٧/١، مفرج الكروب: ابن واصل، ٩٥/٤.

[٢٣]– ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٧٧٢.

ولكن الصليبيين رفضوا هذا الصلح، ويبين ويندوفر سبب ذلك، أن «النائب البابوي–على كل حال– كان راغباً بالاستيلاء على دمياط، وأن تُصبح مُلكاً له، وأيّده بذلك البطريرك ورجال الدين، ولذلك تمت معارضة هذه الشروط، وأصروا على أنه ينبغي الاستيلاء على دمياط قبل جميع الأماكن وفوقها»[٢٤].

هذا ما ذكره ويندوفر الذي يختلف تماماً مع ما ذكره المؤرخون المسلمون، الذين بيّنوا أن الفرنج الصليبيين قالوا: «لابد أن تعطونا خمسمئة ألف دينار[٢٥] لنعمّر بها ما خرّبتم من أسوار بيت المقدس، مع أخذ ما ذُكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضاً»، وهنا قرر المسلمون قتالهم ومصابرتهم[٢٦].

وحدث بعد ذلك أمر قلب الكفة بالكامل لصالح المسلمين، لمّا عبر بعضهم إلى مكان معسكر الصليبيين سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، و«فتحوا مكاناً عظيماً في النيل– وكان الوقت في قوة الزيادة–... والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل، فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد أغرق الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، فانحصروا من سائر الجهات»[٢٧].

وصار بذلك الفرنج محاصرين من كل جهة، وانقطع الاتصال بينهم وبين قيادتهم، ولم يبقَ لهم سوى جهة واحدة ضيقة من الممكن أن يعبروا منها، فنصب المسلمون الجسور

---

[٢٤]- ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٧٧٣.

[٢٥]- ذكر ابن واصل أنهم طلبوا ثلاثمئة ألف دينار.

[٢٦]- السلوك: المقريزي، ٣٢٧/١، مفرج الكروب: ابن واصل، ٩٥/٤.

[٢٧]- السلوك: المقريزي، ٣٢٧/١، وانظر مفرج الكروب: ابن واصل، ٩٦/٤، والمذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣٤٥، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي، ص٣٠٤ – ٣٠٧.

عندها، فصار الفرنج في حصار كامل، وذلك كله «فتّ في أعضاد الفرنج، وألقى في قلوبهم الرعب والذلة، بعدما كانوا في غاية الاستظهار والعنت على المسلمين، وعلموا أنهم مخذولون لا محالة، وعظمت نكاية المسلمين بهم برميهم إياهم بالسهام، وحملهم على أطرافهم... وعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم»، وأمام هكذا أحوال مأساوية «لاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا يسألون الملك الكامل وإخوته الأشرف والمعظم الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط دون عوض»[٢٨].

والحال الآن كله في صالح المسلمين، وهذه الفرصة غير العادية أدركها أبو شامة لمّا قال: «ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم (أي للفرنج)»، وهذا يدل على أن حسم أمر الفرنج الصليبيين كان لا يحتاج إلى أكثر من يومين فقط!![٢٩]، وهذه فرصة كبيرة ربما لن تتوافر فيما بعد لاجتثاث الصليبيين وطردهم من البلاد، وهذا الذي أدركه إخوة الكامل الذين قرروا مناهضة الصليبيين و«اجتثاث أصلهم البتة»، ولكن الكامل وكما يقول المقريزي «خاف»[٣٠]، والمصيبة–كما مر في بداية البحث–أن خوف الكامل كان يكلف المرحلة التاريخية تلك ضريبة كارثية، فخوف الكامل هذا استدعى أن يُنعم على الفرنج–وهم الأعداء في تلك المرحلة التاريخية–، فحين أتوه يطلبون الصلح: «فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام»[٣١].

---

[٢٨]- السلوك: المقريزي، ٣٢٧/١، ٣٢٨، ومفرج الكروب: ابن واصل، ٩٧/٤، المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣٤٥.

[٢٩]- انظر المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣٤٥.

[٣٠]- السلوك: المقريزي، ٣٢٨/١.

[٣١]- المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣٤٦.

ثم أجاب الكاملُ الفرنج ما طلبوه، وتقررت الهدنة بين الطرفين مدة ثماني سنوات (٦١٨ – ٦٢٧ هـ / ١٢٢١ – ١٢٢٩م)، على أن يطلق كلٌّ من الفريقين ما عنده من الأسرى[٣٢].

ثانياً – كيف سلّم الأيوبيون بيت المقدس للفرنج الصليبيين:

كانت حالة الخلاف والتنازع مستمرة بين الأيوبيين[٣٣]، وهي التي تسببت بضياع بيت المقدس والتنازل عنه، والذي يلفت النظر أن الرؤية السائدة بشكل عام أن الكامل هو المسؤول عن ذلك، ولكن قراءة المصادر بتأنٍ تُظهر أن هناك من تورط مع الكامل في هذه الفعلة الشنيعة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تورد المصادر الغربية بنوداً في اتفاقية يافا غير التي توردها المصادر العربية، وسيكون نموذج البحث للمصادر الغربية المؤرخ الصليبي روجر ويندوفر.

فقد عبّر المؤرخون عن حالة التنازع المستمرة بين الأيوبيين، فمثلاً يقول أبو شامة عن التنافر بين الأخوة الأيوبيين سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، بقوله: «وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل والأشرف (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م) والمعظم»[٣٤].

---

[٣٢]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٩٨/٤، السلوك: المقريزي، ٣٢٨/١، ٣٢٩، تاريخ الحروب الصليبية: رنسيمان، ٣٠٠/٣.

[٣٣]- وكي لا نظلم الأيوبيين؛ فإن العالم العربي والإسلامي – في معظمه – كان يعاني من حالة التنازع والتقاتل، وكان عبارة عن قوى متصارعة فيما بينها، مع أن الأخطار كانت محيطة من حواليهم، وقد رصد مرجعان هذه الحال بالتفصيل، ويمكن من خلالهما الوقوف على حقيقة هذه الأوضاع. انظر الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية: حامد زيان، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٣م. العالم الإسلامي والغزو المغولي: إسماعيل الخالدي، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

[٣٤]- المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣٥٤.

ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): «استهلت هذه السنة – سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م – وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً»[٣٥].

وخلال ذلك تطورت التجاوزات بين الأيوبيين إلى أمور أخطر، إذ يذكر المقريزي أنه في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، «تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، فبعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية[٣٦] إلى ملك الفرنج، يريد منه أن يقدم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل، ليشغل سر أخيه المعظم، فتجهّز الإمبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل، وبلغ ذلك المعظم، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل، ووعده بأن يخطب له، ويضرب السكة باسمه، فسيّر إليه جلال الدين خلعة لبسها، وشقّ بها دمشق، وقطع الخطبة للملك الكامل»[٣٧].

إذاً؛ الكامل محمد بن العادل – أقوى أبناء البيت الأيوبي وقتذاك – لم يكن قادراً على تحمل المسؤوليات ناهيك عن قيادة الأحداث.

---

[٣٥]- البداية والنهاية: ابن كثير، تح عبد الله بن التركي، الرياض، دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٧م، ١٧٣/١٧. وانظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: العليمي، تح عدنان أبو تبانة، عمّان، الأردن، مكتبة دنديس، ط١، ١٩٩٩م، ٥٥٥/١.

[٣٦]- وكان هذا الأمير مقرباً من الأيوبيين، توفي سنة ٦٤٧ هـ-، انظر النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ٦/ ٣٢١.

[٣٧]- مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ٤١٦/٨ – ٤٢٧. السلوك: المقريزي، ٣٤٥/١. وانظر مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٠٧/٤، وأخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص١٤.

ولمّا أرسل أخاه المعظم عيسى يطلب النجدة من الخوارزميين، من الأمير جلال الدين محمد، ضد أخيه، لم يسكت الكامل بدوره، بل تحرك، وأرسل يطلب المساعدة، ومِن مَن؟! مِن الإمبراطور الصليبي فريدريك الثاني. فأرسل الكامل إلى صقلية أعظم من يثق به من أمرائه، وهو فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، ليطلب المساعدة من الإمبراطور فريدريك، وهذه الزيارة الأولى، ثم ذهب فخر الدين ثانية إلى فريدريك في صقلية، وهنا يذكر عنه رنسيمان: «حيث أضحى صديقاً حميماً للإمبراطور، الذي نصّبه فارساً»[٣٨].

ثم وصل رسول ملك الفرنج بهدايا فاخرة وتحف غريبة إلى الملك الكامل، وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر. وقد خرج الكامل بنفسه لملاقاة رسول فريدريك بالقرب من القاهرة، وكما يقول المقريزي: «وأكرمه إكراماً زائداً»، ثم أنزله في دار أحد وزرائه.

ثم يذكر المقريزي أن الكامل اهتم بتجهيز هدية فاخرة إلى ملك الفرنج، وكانت عبارة عن تحف من الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم، وسرج من ذهب، وجوهرة بعشرة آلاف دينار مصرية[٣٩].

ثم تطورت الأحداث حين توفي الملك المعظم بن العادل صاحب دمشق في ذي القعدة من سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، بالدوسنطاريا، وكان عمره وقتها سبع وأربعين سنة[٤٠]، ودُفن في قلعة دمشق، ثم نُقل إلى الصالحية، وكما يقول المقريزي: «سُرّ الكامل بموته»[٤١]. ويشير

[٣٨]- انظر تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان، ٣/ ٣٢٧. وانظر مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٢/٤.

[٣٩]- السلوك: المقريزي، ٣٤٥/١.

[٤٠]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٤٢٥/١٠.

[٤١]- السلوك: المقريزي، ٣٤٦/١.

البحث هنا أن الكامل لم يُسر بموت أخيه المعظم فقط، بل ابتهج أيضاً فيما بعد بوفاة أخيه الأشرف، يقول ابن العميد: «وبلغ الكامل وفاته – أي الأشرف – فسُرّ به سروراً عظيماً»[٤٢].

وتولى بعد المعظم ابنه الملك الناصر داود (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وكان عمره وقتذاك إحدى وعشرون سنة، فأرسل الكامل إليه يطلب منه أن يعطيه قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له، فامتنع الناصر داود عن تلبية رغبة عمه الكامل، فوقع الخلاف بين الاثنين، ثم حدث الصراع بينهما على دمشق[٤٣].

وهنا ظهرت مؤامرة الأخوين الكامل والأشرف على ابن أخيهما الناصر داود، ففي شوّال من سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، توجه الكامل صاحب مصر إلى الشام، ووصل إلى بيت المقدس، ثم توجه إلى نابلس ونزل فيها – وكانت من أعمال دمشق –، فلما سمع صاحبها الناصر داود ابن الملك المعظم ذلك، خاف أن يقصده الكامل ويأخذ دمشق منه، فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجده، فتوجه الأشرف إليه إلى دمشق[٤٤].

ولمّا علم الكامل بذلك، لم يتقدم نحو دمشق، لعلمه أن البلد أصبح منيعاً. وهنا أرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه، ويذكر له أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة للكامل وموافقة لأغراضه، وللاتفاق معه على منع الفرنج من البلاد، فأجابه الكامل: «إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه... وأنت تعلم أن عمّنا صلاح الدين فتح بيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل... فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر... وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر».

---

[٤٢]- انظر أخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص٢١.

[٤٣]- السلوك: المقريزي، ٣٤٦/١ – ٣٥٠، وانظر مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٢٥/٤.

[٤٤]- انظر التاريخ المنصوري: ابن نظيف، تح أبو العيد داود،١٩٨١م، ص١٦١، ١٦٢.

ثم غادر الكامل نابلس ونزل في تل العُجول[٤٥]، فخاف الأشرف وأهل الشام إن عاد الكامل إلى مصر أن يستولي الفرنج على بيت المقدس وغيره مما يجاوره، فترددت الرسل مع الكامل، ثم سار الأشرف بنفسه إليه، ومنعه من العودة إلى مصر، فأقاما بمكانهما[٤٦].

ويورد ابن واصل ضمن هذه التطورات بعض الأمور التي من الممكن أن توضح الأحداث أكثر، ويظهر بين طوايا كلماته أن هناك مؤامرة أو خداعاً، إذ يذكر مثلاً عن نية الملك الأشرف ما يأتي: «وفي قلب الملك الأشرف من محبة دمشق، والميل إلى تملكها ما فيه، فهو يعمل على ذلك باطناً»[٤٧].

ويجب أن نشير أن ابن واصل كان شاهد عيان على ما يحدث، إذ كان في دمشق في أثناء هذه الأحداث، وشاهد–على ما ذكر–دخول الأشرف إلى قلعة دمشق، وما جرى بعد ذلك[٤٨].

وهذا ما أدركه اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) الذي قال صراحة: إن الملك الأشرف تغيّر على الملك الناصر داود صاحب دمشق ومال إلى الكامل: «وفارق الملك الناصر وتوجه إلى

---

[٤٥]- هو تل أثري جنوبي غزة، انظر معجم بلدان فلسطين: محمد شراب، دمشق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٧م، ص ٢٣٢.

[٤٦]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٤٣٢/١٠، ٤٣٢. وانظر أيضاً نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، تح الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ١٤٠/٢٩–١٤٣. والمختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، ٣٩/٦.

[٤٧]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٢٩/٤.

[٤٨]- انظر مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٢٨/٤.

الملك الكامل، وأوهم الملك الناصر أنه يُصلح أمره مع عمه الكامل»، وقال له: «الملك الكامل قد رجع حردان، والمصلحة أنني ألحقه وأسترضيه وأقرر القواعد معه»[٤٩].

وتتكشف الصورة بشكل جلي وتكتمل المؤامرة عند إقدام الكامل والأشرف على توقيع اتفاق سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧، والذي نص على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وأنها تكون للملك الأشرف وما معها من الأعمال إلى عقبة فيق[٥٠]، ويكون للملك الكامل ما بين غزة وعقبة فيق من البلاد والحصون، ويعوّض الملك الناصر عن بلاده هذه ببلاد أخرى[٥١].

وتظهر نيّات الأشرف–بما لا يقبل الشك– بقوله لمّا ذهب إلى الناصر داود بعد توقيع الاتفاقية المذكورة: «إني اجتمعت بخدمة عمك السلطان الملك الكامل، وقصدت الإصلاح بينك وبينه بجهدي، وحرصت على أن يرجع عنك ويقر عليك بلادك، لكنه امتنع وأبى إلا أن يأخذ دمشق منك، وأنت تعلم أنه سلطان البيت الأيوبي وكبيرهم، وصاحب الديار المصرية ولا يمكن الخروج عمّا أمر به، وقد وقع الاتفاق على أن تُسلم إليه دمشق، وتُعوض عنها من الشرق كذا وكذا»[٥٢].

أي إن الأشرف كان يلجأ إلى الكذب والخداع في كل مرة لتحقيق مآربه وغاياته المنصبة نحو السيطرة على دمشق، وبالفعل توجه نحو حصار دمشق بعد ذلك. وتتضح الصورة أكثر فيما ذكره ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في أحداث سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، أن الأشرف لمّا

---

[٤٩]- ذيل مرآة الزمان: اليونيني، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م، ١/١٢٨.

[٥٠]- مدينة بين دمشق وطبرية، تُشرف على طبرية وبحيرتها، ومنها يُنحدر إلى غور الأردن، والعقبة: الجبل الطويل، انظر معجم البلدان: ياقوت الحموي، تح فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤/ ١٥١، ٣٢٤.

[٥١]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٤/٢٣١.

[٥٢]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٤/ ٢٣٧، ٢٣٨.

دخل دمشق، وجد أن الناصر وأهل دمشق قد احتاطوا وتجهّزوا للحصار، فأمر الأشرف «بإزالة ذلك، وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لصاحبها–أي للناصر صاحب دمشق –على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه»[٥٣].

وفي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، وصل فريدريك الثاني– قائد الحملة الصليبية السادسة–إلى عكا، بناءً على طلب الملك الكامل السابق، وكان البحث قد بيّن أن المعظم قد توفي، فبعث فريدريك رسوله إلى الكامل يطلب منه تسليمه ما وعده به، وهنا وكما يذكر المقريزي: «تحيّر الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق»، فراسل فريدريك ولاطفه، وظلت الرسل تتردد بين الطرفين طوال سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م[٥٤].

وهنا لا بدّ للبحث أن يصوّر الموقف والمشهد قبيل تسليم بيت المقدس:

– فبالنسبة إلى الصليبيين؛ في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م خرج فريدريك باتجاه ساحل الشام، وكانت قد سبقته إلى هناك عساكره في جمع كبير[٥٥]، وهنا يختلف ابن الأثير مع ابن واصل، ففيما يذكر ابن الأثير أن هؤلاء العساكر قد أفسدوا ما جاورهم من بلاد المسلمين[٥٦]، يذكر ابن واصل أن هؤلاء العساكر «لم يتمكنوا من الحركة خوفاً من الملك المعظم، ولانتظارهم مقدّمهم الإمبراطور». وكان ذلك في آخر أيام الملك المعظم، أي أواخر سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٦م[٥٧].

---

[٥٣]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ١٠/٤٣٥.

[٥٤]- السلوك: المقريزي، ١/٣٥١.

[٥٥]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ١٠/٤٣٤، مفرج الكروب: ابن واصل، ٤/٢٣٤.

[٥٦]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ١٠/٤٣٤.

[٥٧]- انظر الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ١٠/٤٣٤، مفرج الكروب: ابن واصل، ٤/٢٣٤.

ثم وصل فريدريك إلى ساحل الشام ونزل بمدينة عكا[٥٨].

وكانت صيدا في حكم المناصفة بين المسلمين وبين الفرنج، الذين استولوا عليها، وأزالوا عنها حكم المسلمين[٥٩]، وحصّنوها وقويت شوكتهم بها[٦٠].

– وبالنسبة إلى الكامل الأيوبي؛ فإنه كان قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم، وقد نزل بتل العجول، وكانت دمشق وقتها تحت حكم الناصر داود بن المعظم[٦١].

وأمام هكذا تطورات، وقع الملك الكامل في حيرة من أمره، والأمر الواضح أنه شعر بتورطه بما وعد به فريدريك من قبل، وكما يقول ابن واصل واصفاً هذه الحيرة: «لأن أخاه الملك المعظم الذي كان السبب في استدعائه توفي وقد استغنى عنه، ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق»[٦٢].

– ثم بدأت المراسلات بين الطرفين، وهنا يجب التوقف قليلاً لمناقشة قضية مهمة لم يرَ البحث من انتبه إليها من الباحثين، الذين ذكروا أن المراسلات قد تمت بين الكامل وفريدريك، وهذا ما تذكره معظم المصادر التاريخية:

---

[٥٨]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٤٣٤/١٠، مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٣٤/٤.

[٥٩]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٣٥/٤. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي، ص٣١١.

[٦٠]- تاريخ الإسلام: الذهبي، تح بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٨م، ح و٦٢١–٦٣٠هـ–، ص٢٦.

[٦١]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٤٣٤/١٠، وانظر نهاية الأرب: النويري، ١٥٠/٢٩.

[٦٢]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٣٤/٤.

فابن واصل ذكر بوضوح أن الكامل «راسله – أي لفريدريك – ولاطفه» ثم «تقرر بينهما أن يسلم إليه بيت المقدس» [٦٣].

وذكر الشيء نفسه كذلك النويري (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) والمقريزي[٦٤] وغيرهما.

وبالنسبة إلى المراجع؛ فكلها أجمعت– حسب استطلاع هذا البحث– على مسؤولية الكامل فقط في هذه القضية، وهذه أمثلة فقط عنها:

يقول محمد العروسي المطوي: «إن مخابرات في الصلح جرت بين الإمبراطور والملك الكامل انتهت إلى اتفاق بينهما...» [٦٥].

ويقول منذر الحايك: «وأخذ بيت المقدس–أي فريدريك–بمعاهدة سلام مع السلطان الكامل»[٦٦].

وذكر مثل ذلك كل من أسعد حومد[٦٧] ومحمد سهيل طقوش[٦٨] وستيفن رنسيمان[٦٩].

لكن ابن الأثير – وهو الأقرب من الجميع إلى هذه الأحداث–يذكر غير ذلك، إذ يبين ويوضح أن من راسل فريدريك مع الكامل أخوه الملك الأشرف، يقول: «وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع به، فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الإمبراطور ملك الفرنج».

---

[٦٣]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٣٥/٤، ٢٤١.

[٦٤]- نهاية الأرب: النويري، ١٥٠/٢٩، السلوك: المقريزي، ٣٥١/١.

[٦٥]- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م، ص١١٥.

[٦٦]- العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية: الحايك، ٢٦٣/٢ .

[٦٧]- تاريخ الجهاد: أسعد حومد، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٤٦/٢، ٢٤٧ .

[٦٨]- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة: طقوش، ص٣٤٧.

[٦٩]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٣٣٠/٣.

ثم يذكر ابن الأثير الأمر الأخطر أمر تسليم بيت المقدس، وهنا أيضاً لم ينتبه الباحثون إلى قضية أخرى خطيرة، إذ يذكرون أن الكامل هو وحده من اتخذ قرار تسليم بيت المقدس، وحقيقة يفاجئنا ابن الأثير بقوله التالي بعد أن ذكر اجتماع الأشرف مع الكامل، وترددت الرسل بينهما وبين فريدريك[٧٠] «فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه بيت المقدس»[٧١].

واشتراك الأشرف مع الكامل في مراسلة الفرنج الصليبيين بهدف تسليمهم بيت المقدس جلية في قول المؤرخ الغربي الصليبي روجر ويندوفر (الذي توفي بعد ابن الأثير بخمس سنوات فقط)، الذي يقول: «ثم تكرر تبادل الرسل بيننا وبين سلطان مصر، لأنه كان مع السلطان سلطان آخر اسمه الأشرف وهو أخوه، وكانا معاً مع جيش كبير عند غزة »[٧٢].

إذاً، اشترك الأشرف مع الكامل بهذه الفعلة، وكلاهما سلّم بيت المقدس للفرنج.

ثالثاً– اتفاقية يافا ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م ومناقشة بنودها:

وُقِّعت هذه الاتفاقية بين الطرفين، وصلاح الدين أمير إربل وفخر الدين شيخ الشيوخ هما اللذان وقعا اتفاقية يافا وتسليم بيت المقدس كممثلين عن الكامل[٧٣].

---

[٧٠]- ورسُل فريدريك هما اثنان: توماس أكيرا، وباليان سيد صيدا، اللذان فاوضا على اتفاقية يافا. تاريخ الحروب الصليبية: رنسيمان، ٣/ ٣٣٠.

[٧١]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ١٠/٤٣٤.

[٧٢]- انظر ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٨٩٢.

[٧٣]- انظر تاريخ الحروب الصليبية: رنسيمان، ٣/ ٣٣٠.

وهنا يقع البحث على إشكال محيّر، ذكره المؤرخ الغربي الصليبي روجر ويندوفر شاهد العيان الصليبي على هذه الاتفاقية، إذ يذكر بنوداً في هذه الاتفاقية غير التي ذكرها المؤرخون المسلمون، وهذا ما سيوقع في حيرة تحتاج إلى تبيين.

وهنا عرض البحث أولاً ما ذكره المؤرخون المسلمون، إذ نصّت الاتفاقية عندهم على ما يأتي:

– مدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً على ما ذكر المقريزي[٧٤].

– يأخذ ملك الفرنج بيت المقدس من المسلمين.

– يبقيه على ما هو عليه من الخراب، ولا يجدد سوره.

– الحرم وما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يبقى بأيدي المسلمين، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة.

– وتكون القرى التي بين عكا ويافا وبين بيت المقدس بأيدي الفرنج.

– للفرنج قرى معدودة في الطريق من عكا إلى بيت المقدس، وجاء تبرير تسليم هذه القرى للفرنج «خوفاً أن يغتالهم أحد من المسلمين»[٧٥].

---

[٧٤]- السلوك: المقريزي، ٣٥٣/١. بينما ذكر ابن العميد أن مدة المعاهدة عشر سنين وخمسة وأربعين يوماً، وذكر النويري أن مدتها عشر سنين، انظر أخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص١٥، ١٦، نهاية الأرب: النويري، ١٥١/٢٩. وذكر المؤرخ الغربي ويندوفر أن مدتها عشر سنين فقط، انظر ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص ٨٩٣.

[٧٥]– مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤١/٤، ٢٤٢. وذكرت المراجع هذه البنود بالشكل نفسه، ومنها الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: المطوي العروسي، ص١١٥، ١١٦. وتاريخ الجهاد: حومد، ٢٤٦/٢، ٢٤٧. وتاريخ الأيوبيين: طقوش، ص٣٤٧. وتاريخ الحروب الصليبية: رنسيمان، ٣٣٠/٣، ٣٣١.

ويظهر المؤرخون كيف أن هذه الاتفاقية قد أمّنت الطريق بين عكا وبيت المقدس للصليبيين، بطريقة عجيبة جداً، وهي تسليم قرى بأكملها تقع على هذا الطريق!!!. ويظهرون كيف مارس الكامل دور المحامي والمحافظ على أرواح الصليبيين لمّا قال: «فلما تردد الفرنج للزيارة، اغتُيل منهم في الطريق من انفرد، فشكوا ذلك إلى الكامل، فأعطاهم القرايا التي على طريقهم من عكا إلى بي المقدس»[٧٦].

- بل أصبح الكامل وفريدريك صديقين حميمين!!، إذ يقول ابن نظيف (ت بعد ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م): «وفيها- أي سنة ٦٢٦هـ-/١٢٢٨م-وقع الصلح بين السلطان الكامل والإمبراطور على بيت المقدس، وتهادنوا وتأكدت بينهم صداقة»[٧٧].

وبعد القرار القطعي من الكامل بتسليم بيت المقدس؛ أرسل من ينادي فيه بخروج المسلمين، وتسليمه إلى الفرنج[٧٨]، هذا نظرياً، وعملياً: «أخلى الكامل البيت المقدس من المسلمين وسلّمه إلى الفرنج وصالحهم على ذلك» [٧٩].

---

[٧٦]- ذيل مرآة الزمان: اليونيني، ١٢٩/١. مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٣/٤. وانظر السلوك: المقريزي، ٣٥٣/١، ٣٥٤. الأنس الجليل: العليمي، ٥٥٥/٢. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي، ص٣١١.

[٧٧]- ابن نظيف: التاريخ المنصوري، ص١٧٦.

[٧٨]- السلوك: المقريزي، ٣٥٤/١. مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٣/٤. كذلك مسالك الأبصار: العمري، تح حمزة عباس، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠٤م، ٢٧١/٢٧، ٢٧٢ .

[٧٩]- المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ٢/ ٩.

ثم دخل الصليبيون إلى بيت المقدس، وفعلوا ما يأتي بشهادة المؤرخ الغربي ويندوفر المعاصر لهذه الأحداث، الذي قال: «دخل الجيش الصليبي إلى مدينة بيت المقدس المقدسة، وقام البطريرك مع الأساقفة المساعدين بتطهير هيكل الرب، وكنيسة ضريحه المقدس وقيامته، وجميع الكنائس الأخرى المقدسة في المدينة، وغسلوا البلاط والجدران بالماء المقدس، وعملوا مسيرات مع الترانيم والمزامير، وصالحوا لأجل الرب جميع أماكنه التي تلوثت لزمن طويل بدنس الكفار (يقصد المسلمين)»[٨٠].

ويأتي البحث إلى رؤية ويندوفر (المحيّرة) عن هذه الاتفاقية؛ فقد أوردها من خلال رسالة أرسلها فريدريك إلى ملك إنكلترة بمناسبة (استعادة بيت المقدس)، وقد جاء فيها ما يأتي: «وليكن معلوماً من قبلكم أنه ليست المدينة المتقدم ذكرها (أي بيت المقدس) وحدها هي التي سُلمت إلينا، بل المنطقة كلها الممتدة:

– من هناك إلى ساحل البحر قرب قلعة يافا، وذلك في سبيل أن يمتلك حجاج المستقبل ممراً حراً وآمناً للذهاب إلى الضريح المقدس والعودة منه.

– على شرط أن مسلمي ذلك الجزء من البلاد – بما أنهم يُقدّرون الأقصى تقديراً عظيماً – يمكنهم أن يأتوا إلى هناك ويترددون عليه بقدر ما يختارون، على شكل زوَّار للتعبد هناك، وفقاً لعاداتهم.

– هذا ولسوف نسمح إليهم بالقدوم من الآن فصاعداً: بالعدد الذي نأذن به، من دون سلاح، كما أنهم لا يمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يغادروا فور تأديتهم لعباداتهم.

---

[٨٠]- ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٨٩٨.

– وفضلاً عن ذلك أُعيدت مدينة بيت لحم إلينا مع المنطقة القائمة بين بيت المقدس وبين تلك المدينة جميعها.

– وكذلك مدينة الناصرة، والمنطقة كلها القائمة بين عكا وتلك المدينة.

– وجميع منطقة تورون التي هي واسعة جداً، ومفيدة جداً للصليبيين.

– وأُعطيت مدينة صيدا إلينا أيضاً مع السهل وأحوازها جميعها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين وأكثر منفعة مثلما كانت حتى الآن بالنسبة إلى المسلمين، ولاسيما أنه يوجد ميناء جيد هناك، ومن هناك من الممكن نقل كميات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب من دمشق إلى القاهرة.

– ومع أنه مسموح لنا بموجب المعاهدة بإعادة بناء مدينة بيت المقدس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قط.

– وكذلك قلاع: يافا وقيسارية وصيدا وقلعة القديسة مريم...

– وإنه مع ذلك، غير مسموح للسلطان حتى نهاية الهدنة بينه وبيننا، التي مدتها المتفق عليها عشر سنوات، بترميم أو إعادة بناء أيٍّ من حصونه أو قلاعه»[٨١].

فهذه البنود مختلفة – بل متعاكسة – مع ما ذكره المؤرخون المسلمون، وتصيبنا بصدمة كبيرة لو صحّت، لأن فيها تنازلات كثيرة وخطيرة، ولا يمكن تصديق ذلك أو تكذيبه إلا في ضوء قراءة ما بين الأسطر التي بين يدي البحث– وهي شحيحة–.

[٨١]-ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٨٩٢، ٨٩٣.

فويندوفر نفسه يورد خبراً بالأهمية بمكان، يظهر فيه أن بنود هذه الاتفاقية لم يكن يعلمها – من الغربيين – إلا فريدريك، وهذا الخبر هو قول البابا عن فريدريك غاضباً منه: «ما من أحد سواه عرف شروط المعاهدة التي أبرمها مع السلطان»[٨٢].

وهذا يقود إلى القول: لو أن بنود هذه المعاهدة هي ما ذكره ويندوفر لما أخفاها فريدريك، لأنها من أولها إلى آخرها في صالح الفرنج الصليبيين، فما معنى أن يتحرّج عن إظهارها، وبناء على ذلك يستطيع البحث أن يتوقع أن أحداً من الرجلين – فريدريك أو ويندوفر– قد غيّر وحرّف النص الأصلي لهذه المعاهدة بغية إظهار الصليبيين بموقف مشرّف.

ويرجّح البحث أن يكون خبر رسالة فريدريك إلى ملك إنكلترة صحيحاً، ولكن مضمون هذه الرسالة قد حرّفه فريدريك ليقوي من موقفه (المهتزء) أمام الكنيسة وأوربا، ففي نوفمبر سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م قطع البابا جريجوري فريدريك من الكنيسة بقرار ردده في كنيسة القديس بطرس. ثم قطع البابا فريدريك مرة ثانية من الكنيسة لأنه خرج في حرب صليبية قبل أن يحصل على تحلل من قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده [٨٣].

بل كان موقف البابا أنوسنت الرابع من فريدريك أشنع، إذ عدد في مجمع ليون (خطاياه العظيمة)، ومنها: إرسال الرسل والهدايا للمسلمين وتلقي هدايا منهم، وتبني عادات المسلمين

---

[٨٢]- ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٨٩٩.

[٨٣]- ذكر المؤرخ ويندوفر ما يأتي: «وفي هذه الآونة بدا للبابا غريغوري أنه سمح لعصيان الإمبراطور ومصاداته للمسيح بوقت أطول مما ينبغي من دون عقوبة، وأخيراً، ولكي لا يبدو أنه مثل كلب غير قادر على النباح، قام بناء على نصيحة كرادلته بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق الإمبراطور المذكور، وأمر بوساطة رسائل رسولية بنشر هذا القرار في مختلف أنحاء العالم»، انظر ورود التاريخ: روجر ويندوفر، ص٨٦٢.

والسماح بذكر اسم نبيهم في (هيكل الرب)، واستقبال سفراء سلطان مصر الذي (يلحق الأذى بالأرض المقدسة) [٨٤].

ويرى البحث أن الأحداث التي حدثت بعد المعاهدة قد دلّت على مصداقية ما ذكره عدد من المؤرخين المسلمين، فلم يحدث شيء مما ورد عند ويندوفر أو غيره، بل إن مجرد تعمير الفرنج قلعة غربي بيت المقدس أدى إلى محاصرة المسلمين لهذه القلعة ولتحرير بيت المقدس، عادّين ما قام به الفرنج خرقاً لمعاهدة يافا.

إذ لما مات الكامل؛ عمّر الفرنج قلعة غربي بيت المقدس، وجعلوا برج داود عليه السلام من أبراجها، وكان هذا البرج قد بقي من غير تخريب دون الأبراج الأخرى لمّا خرّب الملك المعظم أسوار بيت المقدس[٨٥].

وهنا توجه الملك الناصر داود بعساكره ومن والاه إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة التي بناها الفرنج، ونصب عليها المجانيق، ولم يزل على ذلك حتى سُلمت إليه بالأمان سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، فهدمها، وهدم برج داود، وطهّر بيت المقدس من الفرنج وسيطر عليه[٨٦].

رابعاً– ردود الفعل على تسليم بيت المقدس:

بداية يشير البحث إلى خبر ذكره بعض المؤرخين، يدل على الغضب الشديد في العالم الإسلامي من الكامل، فقد ذكر ابن نظيف أن الكامل سيّر رسله إلى الخليفة وإلى العالم

---

[٨٤]- العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية: الحايك، ٢٦٥/٢.

[٨٥]- انظر المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ١/ ٣١٣، السلوك: المقريزي، ١/ ٣٢١.

[٨٦]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٦/٥، ٢٤٧. المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، ٦٧/٦. العليمي: الأنس الجليل، ٣١/٢، ٣٢.

الإسلامي الشرقي لأجل «تسكين العالم عُقيب الصلح على بيت المقدس»[٨٧]، وذكر المقريزي غاية الكامل أيضاً ملخصة ب– «تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج بيت المقدس»[٨٨].

أمّا تبريرات الكامل، فكانت رؤيته – كما ادعى – تتلخص بتبريريات واهية، وهي كما بيّنها ابن واصل كما يأتي:

– خاف إن شاقق الإمبراطور ولم يفِ له بوعده أن يفتح له ذلك باب الحرب مع الفرنج.

– «رأى أن يرضي الإمبراطور بمدينة بيت المقدس خراباً».

– رأى أن يهادن الفرنج مدة.

– رأى أنه قادر على انتزاع ما قدّمه للفرنج متى شاء[٨٩].

وقد حاول الكامل أن يخفف ويقلل من خطر فعلته هذه وشناعتها، فصار يقول: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر (دور) خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»[٩٠].

وأورد النويري تبريراً ثانياً ذكره الكامل، حينما قال: «ما أحوجني إلى هذا – أي إلى تسليم بيت المقدس–إلا المعظم»، ويعقب النويري على ذلك بقوله: «يشير إلى أن المعظم أعطى

---

[٨٧]- التاريخ المنصوري: ابن نظيف، ص ١٧٩.

[٨٨]- السلوك: المقريزي، ١/ ٣٥٥.

[٨٩]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٢/٤.

[٩٠]- السلوك: المقريزي، ٣٥٤/١. مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٣/٤.

الإمبراطور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الضياع التي من باب بيت المقدس إلى يافا، وغيرها»[٩١].

هذا عن موقف الكامل من فعلته نظرياً، أمّا عملياً فكانت ردة فعله أفظع وأغلظ، وتصرف كالآتي:

- المؤذنون الذين أتوه وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان إشارة إلى فعلته القبيحة؛ صادر ما كان معهم من الستور وقناديل الفضة والآلات، وزجرهم، وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم [٩٢].
- أرسل فريدريك له يطلب منه تبنين وأعمالها، فسلّمها الكامل له.
- أرسل فريدريك يستأذنه في دخول بيت المقدس، فأجابه الكامل إلى طلبه.
- سيّر مع فريدريك لخدمته القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي سار معه إلى الصخرة والأقصى.
- أمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين ألا يؤذّنوا تلك الليلة، فلم يؤذّنوا البتة [٩٣].

أما ردة فعل الكامل تجاه دمشق، فإن أخاه الأشرف–وكان يحاصر دمشق–بعث إليه يستحثه، فسار الكامل إلى دمشق ونزل على ظاهرها، وجدّ هو والأشرف في حصارها، حتى

[٩١]- نهاية الأرب: النويري، ١٥٢/٢٩.

[٩٢]- أخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص١٦، ونهاية الأرب: النويري، ١٥١/٢٩.

[٩٣]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٥/٤. السلوك: المقريزي،٣٥٤/١.

اشتد عطش الناس فيها لانقطاع الأنهار عنهم، إذ كان الأشرف قد قطع عن دمشق أنهارها: بانياس والقنوات وبزيد وثورا في السنة نفسها ٦٢٦هـ-/١٢٢٨م [٩٤].

ونُهبت البساتين، وكثر الحريق والنهب، وغلت الأسعار، ونفدت أموال الناصر، وضعف قلبه، فخرج ليلاً من قلعة دمشق– ومعه نفر يسير– باتجاه مخيم الكامل، فخرج إليه الكامل وأكرمه إكراماً زائداً، وباسطه وطيّب قلبه، بعد عتب كثير، وأمره أن يعود إلى القلعة، فعاد إليها، وعوّضه عن دمشق ب-: الكرك والشوبك وأعمالها، مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها، ونابلس وأعمال بيت المقدس وبيت جبريل (شمالي غرب الخليل).

ثم تسلم الملك الأشرف دمشق، وفُتحت أبوابها، وشقّ ذلك على أهل دمشق وكثر بكاؤهم[٩٥].

أمّا ردود فعل العالم الإسلامي جرّاء تسليم بيت المقدس، فكانت كالآتي:

- اشتد البكاء بين الناس، وعظم الصراخ والعويل.
- عظم على أهل الإسلام هذا البلاء.
- اشتد الإنكار على الملك الكامل.
- كثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار[٩٦].

---

[٩٤]- انظر السلوك: المقريزي، ٣٥٣/١.

[٩٥]- السلوك: المقريزي، ٣٥٥/١ – ٣٥٧، والمذيّل على الروضتين: أبو شامة، ٢/ ١٠، وأخبار الأيوبيين: ابن العميد، ص١٤، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي، ص٣٤٧.

[٩٦]- السلوك: المقريزي، ٣٥٤/١. مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٥/٤.

وهنا عرض البحث أقوال بعض المؤرخين كما وردت، ليضع أمام القارئ صورة الأوضاع كما حدثت. وأبلغ وصف يعبر عن هذه المصيبة ذكره المؤرخان: ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م) واليافعي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م):

إذ يقول ابن قاضي شهبة: «ووصلت الأخبار بتسليم بيت المقدس، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، وافتتحت المآتم »[٩٧].

ويقول اليافعي: «سنة ست وعشرين وست مائة؛ فيها أخذ الكامل بيت المقدس، وسلّمه إلى ملك الفرنج، أعوذ بالله من سخط الله، ومن انتهاك شعائر الله، وموالاة أعداء الله، فكم بين من طهّره من نجاسات الشرك، وبين من ساق إليه نجاسات الشرك، ومن أعز دين الله ونصره، وبين من أذّله وحقّره، ثم أتبع فعله بحصار دمشق، وإيذاء الرعية، وجرت بين عسكره وعسكر الناصر وقعات حربية، وقتل جماعة في غير سبيل الله، ووقع النهب في الغوطة والحواضر، وأُحرقت الجبانات (المقابر) والخوانق»[٩٨].

ويقول ابن الأثير: «وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[٩٩].

أما ابن واصل، فينقل لنا ما حدث عن طريق والده الذي كان في بيت المقدس لما سُلّم للفرنج، يقول: «فحكى لي والدي–رحمه الله وكان لما وقعت هذه الواقعة ببيت المقدس

---

[٩٧]- التاريخ الكبير: ابن قاضي شهبة، مخطوط، استانبول، مكتبة فيض الله أفندي، ورقة ٥٦ و.

[٩٨]- مرآة الجنان وعبرة اليقظان: اليافعي، وضع حواشه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، ٤٧/٤.

[٩٩]- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٤٣٥/١٠.

الشريف–... قال: لما نودي ببيت المقدس بخروج المسلمين، وتسليم بيت المقدس إلى الفرنج، وقع في أهل بيت المقدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج بيت المقدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل، واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين»[١٠٠].

ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): «فعظم ذلك على المسلمين جداً، وحصل بسبب ذلك وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون» [١٠١].

واتفق أبو شامة والذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أن ما حدث كان «من الوصمات التي دخلت على المسلمين»[١٠٢]. ويتابع الذهبي: «وتوغرت القلوب على الكامل – فإنا لله وإنا إليه راجعون–. ثم أتبعها بحصار دمشق وأذية المسلمين... وقطعوا عن دمشق بانياس والقنوات، ثم قطعوا يزيد وثورا [١٠٣]، ونهبوا البساتين، وأحرقوا الجواسق»[١٠٤].

وذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): «ووصلت الأخبار بتسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور، فقامت قيامة الناس لذلك»[١٠٥].

أمّا ردود الفعل في دمشق فجاءت كالآتي:

---

[١٠٠]- مفرج الكروب: ابن واصل، ٢٤٣/٤.

[١٠١]- البداية والنهاية: ابن كثير، ١٧٣/١٧.

[١٠٢]- المذيّل على الروضتين: أبو شامة، ٩/١٢، تاريخ الإسلام: الذهبي، ح و ٦٢١– ٦٣٠هـ–، ص٢٨.

[١٠٣]- وهذه من أنهار دمشق السبعة المتفرعة عن بردى.

[١٠٤]- تاريخ الإسلام: الذهبي، ح و ٦٢١– ٦٣٠هـ–، ص٢٨.

[١٠٥]- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ٢٤٢/٦.

– اشتد تشنيع الملك الناصر داود على عمه الكامل.

– نفرت قلوب الرعيه من الكامل.

– أقام الحافظ شمس الدين سبط بن الجوزي بجامع دمشق الأموي درساً، ذكر فيه فضائل بيت المقدس، وشنّع على الكامل فعلته، فاجتمع في مجلسه هذا «مالا يحصى عدده من الناس».

– علت أصوات أهل دمشق بالصراخ، واشتد بكاؤهم.

– نظم الحافظ شمس الدين سبط بن الجوزي في ذلك قصيدة من ثلاثمئة بيت منها:

على قبة المعراج والصخرة التي	تفاخر مافي الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحي مقفر العرصات

– لم يُر بدمشق أكثر بكاء مما جرى من ذلك اليوم[١٠٦].

بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك، إذ ظهرت فتوى بجواز قتال الكامل والأشرف، وقد وافق سبط ابن الجوزي عليها[١٠٧]، وهذا يعني اتهام الكامل والأشرف بالخيانة العظمى، ويدلل من ناحية ثانية على عظم ما أصاب العالم العربي والإسلامي من مصيبة في ذلك الوقت.

[١٠٦]- مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ٤٣٢/٨. السلوك: المقريزي، ٣٥٥/١، ٣٥٦.

[١٠٧]- مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ٤٣٣/٨.

فهذه قراءة جديدة لأحداث تسليم بيت المقدس للفرنج الصليبيين، وقد بيّن البحث أن أخطر قضية من الممكن أن تؤدي إلى الخيانات هي التفرق والتمزق والتنافر والتنازع، وهذا ما اتصف به الأيوبيون– بعد وفاة صلاح الدين ثم بعد وفاة العادل–، فكانت النتائج كارثية.

– الخاتمة:

كانت اتفاقية يافا مقايضة إقليمية تم التوصل إليها دون قتال، بفضل البراعة السياسية لفريدريك الثاني، وبسبب ما اتصف به الكامل من صفات سلبية وردت في هذا البحث. وقد أحرزت هذه الحملة الصليبية السادسة من النجاح قدر ما أحرزته الحملة الخامسة من الإخفاق، فحقّق فريدريك الثاني السيطرة على بيت المقدس الذي أخفق الصليبيون في السيطرة عليه بحد السيف مدة أربعين سنة منذ سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م.

وتعدّ هذه الحملة (حملة فريدريك الثاني) فريدة في ذاتها في حوليات الحروب الصليبية، فهي من دون الحملات الصليبية التي لم تباركها البابوية، بل صبّت عليها لعنتها، وهي الوحيدة بين الحملات الصليبية التي جرى توجيهها دون أن تقوم بأي عمل عدائي ضد المسلمين، فإن القديس لويس ذات مرة – وهو يعد النموذج الخالص للصليبي المتدين– قال: «ما كان للعلماني أن يجادل الزنديق في الشريعة المسيحية إلا بأن يجري سيفه فيه»[١٠٨].

والتعبير التالي من المؤرخ الغربي أرنست باركر أبلغ من عشرات التعابير، إذ يقول: «لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة، إنما الذي حدث فعلاً، هو نوع من المساومة الحقيرة، مثلما يجري عادة في أي سوق من أسواق الشرق»[١٠٩].

---

[١٠٨]– انظر الحروب الصليبية: أرنست باركر، تر السيد الباز العريني، بيروت، دار النهضة، ص١١١، ١١٢.

[١٠٩]– الحروب الصليبية: أرنست باركر، ص١١٥.

بل يعتقد (فان كليف) أن اتفاقية يافا عُقدت بين رجلين وليس بين دولتين، يقول: «كان الضعف البين في هذه الاتفاقية أنها تفتقر إلى تزكية عامة بين الشعبين اللذين عُقدت باسميهما، إذ لم تكن اتفاقية بين دولتين، ولكن بين رجلين كل منهما يستطيع إبداء التسامح تجاه خصمه، دون أن يشاركهما أتباعهما في ذلك»[١١٠].

ونظراً إلى أنّ التاريخ عبرة، فإن المؤرخين وصفوا لنا مشاعر الناس اتجاه وفاة الكامل – مسلّم بيت المقدس–، فالنويري يذكر: «ولم يُظهروا الحزن عليه بدمشق»[١١١]. ويذكر الصفدي: «ولم يحزن الناس عليه، ولحقهم بهتة»[١١٢].

وفي قول الحنبلي (ت ٨٧٦ هـ/١٤٧١م) الآتي من العبر الشيء الكثير، يقول: «وبين موته – أي الكامل – وموت الأشرف نحو ستة أشهر، وما أسرع موت المتعادين»[١١٣].

لذلك يمكن القول: إنّ التاريخ مستودع التجارب، فإن أردنا أن نحسن قراءته فعلينا أن نستخلص منه قوانين النجاح والانتصار لنتمسك بها، وبالمقابل علينا أن نتبيّن منه أسباب الانهزام والتخاذل لنتجنبها، وهنا أستحضر قول عميد الأدب العربي الحقيقي مصطفى صادق الرافعي: «إنما تؤتى الأمم من تاريخها، وإنما تؤتى الحصون من دواخلها».

(110 -The Emperor Fredrick II: Van Cleve,Oxford, 1972 p: 220

١١١)- نهاية الأرب: النويري، ٢٢٧/٢٩.

١١٢)- الوافي بالوفيات: الصفدي، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ١٩٤/١.

١١٣)- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي، ص٣١٩.

مصادر البحث ومراجعه:

- المصادر:

- التاريخ الكبير: ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)، مخطوط، استانبول، مكتبة فيض الله أفندي.

- أخبار الأيوبيين: ابن العميد جرجس (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية.

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: العليمي (ت ٩٢٧ هـ/١٥٢٠م)، تح عدنان أبو تبانة، عمّان، الأردن، مكته دنديس، ط١، ١٩٩٩م.

- البداية والنهاية: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، تح عبد الله بن التركي، الرياض، دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٧م.

- تاريخ الإسلام: الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تح بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٨م.

- التاريخ المنصوري: ابن نظيف (ت بعد ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، تح أبو العيد داود،١٩٨١م.

- تقويم البلدان: أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تصحيح رينود والبارون، باريس، ١٨٤٠م.

- الذيل على الروضتين: أبو شامة (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تح محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٤٧م.

- ذيل مرآة الزمان: اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م.

- السلوك: المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨م.

- شذرات الذهب: ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، تح محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م.

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: الحنبلي أحمد (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م)، تح ناظم رشيد، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٩م.

- الكامل في التاريخ: ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، تح عمر تدمري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

- المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

- المذيّل على الروضتين: أبو شامة (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تح إبراهيم الزيبق، دمشق، دار الرسالة، بيروت، دار البشائر، ط١، ٢٠١٠م.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان: اليافعي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، وضع حواشه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.

- مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ /١٢٥٦م)، شيكاغو، ١٩٠٧م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تح حمزة عباس، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠٤م.

- مفرج الكروب: ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، تح جمال الدين الشيّال، مصر، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.

- معجم البلدان: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، تح فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية.

- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

- نهاية الأرب: النويري (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

- ورود التاريخ: روجر ويندوفر (ت ٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية: تح و تر سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠.

- المراجع:

- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة: طقوش، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩م.

- تاريخ الجهاد: أسعد حومد، ط١، ٢٠٠٢م.

- تاريخ الحروب الصليبية: أنتوني بردج، تر أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥.

- تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان، تر السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٠م.

- التقويم: أكرم العلبي، بيروت، المصادر، ط١، ١٩٩١م.

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م.

- الحروب الصليبية: أرنست باركر، تر السيد الباز العريني، بيروت، دار النهضة.

- الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية: حامد زيان، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٣م.

- العالم الإسلامي والغزو المغولي: إسماعيل الخالدي، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

- العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية: منذر الحايك، دمشق، دار الأوائل، ط١، ٢٠٠٦م.

- معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م.

- معجم بلدان فلسطين: محمد شراب، دمشق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٧م.

- The Emperor Fredrick II; Van Cleve, Oxford, 1972.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *